مفتي مصر علي جمعة في حديث الى «الحياة»: الصيام من طريق القمر الاصطناعي بدءاً من رمضان المقبل

□ *القاهرة – أحمد جمال*

■ يعتبر مفتي الديار المصرية الجديد الدكتور علي جمعة أصغر من تبوأ منصب الافتاء في تاريخ مصر اذ لم يتجاوز الحادية والخمسين من العمر. وهو لم يكن أزهرياً في بداية تعليمه اذ حصل على اجازة من كلية التجارة في جامعة عين شمس قبل ان يلتحق بالأزهر ويتدرج حتى أصبح أستاذاً مرموقاً له اجتهاداته الجريئة. ويرشحه كثيرون لاعتلاء مشيخة الأزهر مستقبلاً بسبب مؤهلاته الفقهية، وأيضاً لعلاقاته الواسعة خارج مصر اذ اختير لحضور كثير من المجامع الفقهية في الخارج فضلاً عن إجادته للغات أجنبية عدة. «الحياة» التقته وكان الحوار الآتي:

● يتكرر الاختلاف سنوياً بين الدول الإسلامية حول بدايات الشهور الهجرية وخصوصاً رمضان وشوال ما يؤدي إلى تباين بين المسلمين في مواعيد الصوم أو الاحتفال بعيد الفطر، فمتى يرى مشروع القمر الاصطناعي الإسلامي الذي تبنته دار الافتاء المصرية أيام الدكتور نصر فريد واصل النور للقضاء على هذا الاختلاف؟

– اتخذنا خطوة عملية بعدما توليت دار الافتاء، إذ وقعنا اتفاقاً مع مركز دراسات وبحوث الفضاء في جامعة القاهرة الذي ترأسه الدكتورة ميرفت عوض لتنفيذ المشروع في أسرع وقت وسلمناها ربع مليون دولار قيمة التبرعات التي تلقتها دار الافتاء لهذا المشروع، الذي سيتم طرح تنفيذه على الشركات العالمية قريباً، ونأمل أن يستفيد العالم الإسلامي بهذا القمر في رؤية هلال رمضان القادم إن شاء الله.

● صدرت عنكم فتاوى استغربها الرأي العام الإسلامي في مصر وخارجها وعندما يتم سؤالكم عن دوافعها تقولون إنكم تؤمنون بمنهج التيسير، فما هي ضوابط هذا المنهج خصوصاً أن البعض يخشى أن يتحول التيسير إلى تسيب؟

– هذا خطأ في الفهم لأن قضية التيسير ينظر إليها البعض وكأنها كلمة تشتمل في داخلها على التسيب. أنا أنادي بالتيسير المنضبط والبعد عن التعسير. نحن كعلماء ننقل منهجاً متكاملاً في التراث الإسلامي، وليست المسألة انتقاء وتتبع الرخص كما قد يتوهم البعض. وإذا كنت أيسّر على الناس فإن هذا لا يكون إطلاقاً في أمر قطعي وضعه الله وحددته الشريعة، وبالتالي يكون التيسير في المساحة الظنية التي فيها الحال للاجتهاد المستند إلى الأدلة الشرعية وليس اجتهاداً بحسب الأهواء، وبالتالي فإن التيسير منهج متكامل يعرفه العلماء.

● شهدنا في الشهور الاخيرة اكثر من عملية فصل للتوائم الملتصقة نجح بعضها وفشل بعضها الاخر. ما هو حكم الشرع في قضية الاجنة المشوهة وامكان اجهاضها خصوصاً عند اكتشافها طبياً من طريق الاشعة؟

– اتفق الفقهاء على انه اذا بلغ عمر الجنين في بطن امه مئة وعشرين يوماً وهي مدة نفخ الروح فيه فإنه لا يجوز اسقاطه ويحرم الاجهاض قطعاً في هذه الحال لانه يعتبر قتلاً للنفس التي حرم الله قتلها الا بالحق لقوله تعالى «ولا تقتلوا أولادكم عن إملاق نحن نرزقكم وإياهم»، وقوله «ولا تقتلوا النفس التي حرّم الله الا بالحق». أما اذا لم يبلغ عمر الجنين في بطن امه مئة وعشرين يوماً فيختلف الفقهاء في حكم الاجهاض، ويقول بعضهم بالحرمة، وبعضهم الآخر قال بالكراهة مطلقاً وآخرون بالإباحة عند وجود العذر.

والراجح والمختار للفتوى انه يحرم الاجهاض مطلقاً سواء قبل نفخ الروح او بعده لضرورة شرعية بأن يقرر الطبيب العدل الثقة ان بقاء الجنين في بطن امه فيه خطر على حياتها فحينئذ يجوز اسقاطه مراعاة لحياة الام المستقرة وتغليباً لها على حياة الجنين غير المستقرة، ويكون الطبيب في هذه الحال مسؤولاً عن قراره أمام الله لقوله تعالى «فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون». وبالتالي فإن وجود بعض التشوهات الخلقية او الاعاقة الذهنية في الجنين ليست مبرراً للاجهاض وحرمة الجنين الحي داخل رحم امه تعادل حرمة الطفل المولود، فكل منهما حي وكل منهما يتنفس ويتحرك ويتغذى، وكما يحرم التخلص من حياة الطفل المعوق او المشوه فكذلك يحرم التخلص من حياة الجنين الذي اثبت الفحص الطبي تشوهه اللهم الا في حال تعارض حياته مع حياة الام، فهنا تطبق القاعدة الشرعية «وجوب دفع الضرر الاكبر بضرر اصغر» وعلى الوالدين ان يصبرا ويفوضا امرهما لخالق هذا الجنين عسى أن يجعل لهما من أمرهما مخرجاً.

● ما هو موقفكم من نقل الاعضاء والتبرع بها؟

– على رغم احترامي الشديد لمن يبيحون التبرع بالاعضاء وأدلتهم التي استندوا اليها، فأنا لا أؤيد التبرع بالاعضاء لأن الانسان لا يملك أعضاءه حتى يتبرع بها وانما هي ملك لله وحده الذي كرم الانسان بقوله «ولقد كرمنا بني آدم». لهذا اخشى ان تتحول عملية التبرع الى تحول الانسان الى قطع غيار بشرية وهذا ما يرفضه الله.

● يطالب البعض بالاستغناء عن الفقه والتراث القديم وابتداع فقه جديد يواكب ركب التقدم، فيما يدعو آخرون الى التمسك بالتراث كاملاً ورفض كل ما هو مستحدث. ما رؤيتكم للتعامل مع التراث الاسلامي بالطريقة المثلى؟

– هناك ثلاثة مفاهيم للتعامل مع التراث الاسلامي اولها الرفض المطلق، وثانيها التمسك المطلق به، وثالثها الانتقاء العشوائي. هذه المناهج الثلاثة باطلة لأنه لا ينبغي التعامل مع التراث على اساسها وانما ينبغي التعامل معه بما يصلح شأن الناس في دينهم ودنياهم وحياتهم.

أنا لا ارفض الفقه الاسلامي ابداً وانما اتمسك به في صورة قواعده ومناهجه وطريقة فهمه ونظام تكوينه العقلي ولكن لا اقف عند مسائله، فالمسائل قد يتجاوزها الزمان لانه جزء منها ولذلك تتبدل بتبدل الزمان والمكان، وبالتالي يجب أن نعرف أن هناك ثوابت وان الفقه لا بد من الرجوع اليه لانه تراث عظيم وغني بتجربة السنين التي يجب ان نأخذ منها كيفية التفكير المستقيم، وبالتالي فإن القول برفضه مطلقاً باطل لأن فيه اهداراً لهوية الامة.

● في وقت ترتفع دعاوى صراع الحضارات والاديان ما زال الازهر متمسكاً بحوار الاديان مع الفاتيكان وغيره. ما جدوى هذا الحوار اذا لم يكن مفيداً في تغيير الواقع المعادي للمسلمين؟

– لو اتحد معنى الحوار عند المتحاورين وان يكون ساعياً للمشترك من أجل التعاون والسلام العالمي فهنا يكون الحوار مفيداً. اما اذا كان الحوار القائم في اذهان الناس معناه اخراج الناس من دينهم الى دين آخر فإنه سيفشل، لهذا لا بد من السعي الى ايجاد المشترك الذي تتم بموجبه عبادة الله وعمارة الارض وتزكية النفس وان ينظر كل الى الآخر بأنه مساو له وليس مهيمناً عليه. الاسلام يرفض فرض عقيدته على الاخرين ويكفي ان تذكر قوله تعالى «لكم دينكم ولي دين». مصر مثلاً لم يدخل من أهلها الى الاسلام بعد مرور مئة سنة على فتحها سوى خمسة في المئة فقط من سكانها، وهذه سماحة وحرية عقيدة وحوار في ضوء قوله تعالى «ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي احسن».

● يتردد أنكم ترفضون ان تكون هناك مفتية للنساء تعمل تحت اشرافكم لرفع الحرج عنهن. ما مدى صحة ذلك؟

– لست ضد أي عمل فيه خير للمرأة من المنظور. المرأة هي الأم والزوجة والابنة والشقيقة، لكن القضية مرجعها الى ولي الأمر يقرر ما يراه صالحاً في ضوء الزمان والمكان والاشخاص والاحوال. وللعلم الحكم الشرعي لا يمنع ذلك فالسيدة عائشة والسيدة ام سلمة كانتا تفتيان بل ان السيدة عائشة تفردت بفتاوى لم يسبقها اليها احد فيها مثل فتوى بيع استار الكعبة والانتفاع بها في الكعبة بدلاً من دفنها كما كان معتاداً.

● ما رأيكم في النقاب؟ وما مواصفات الزي الشرعي الذي لا اختلاف فيه بالنسبة الى المرأة؟

– الزي الشرعي المطلوب من المسلمة هو اي زي لا يصف مفاتن الجسد ولا يشف ويستر الجسد كله ما عدا الوجه والكفين. ولا مانع ان تلبس المرأة الملابس الملونة شرط الا تكون لافتة للنظر او تثير الفتنة، فاذا تحققت هذه الشروط على أي زي جاز للمرأة المسلمة ان ترتديه وتخرج به. اما نقاب المرأة وهو غطاء تغطي به وجهها عن الناس فيرى بعض الفقهاء انه يجب على المرأة ستر وجهها لحديث عائشة رضي الله عنها الذي تذكر فيه انهن كن يسدلن على وجوهن اذا قابلن الرجال، وأكثر اهل العلم يرون ان هذا القول لا يتوجه به دليل على وجوب ستر وجه المرأة لاحتمال ان يكون ذلك حكماً خاصاً بأمهات المؤمنين كحركة نكاحهن بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وما عليه اكثر الفقهاء انه لا يجب على المرأة ستر وجهها وكفيها وذلك اخذاً من قوله تعالى «ولا يبدين زينتهن الا ما ظهر منها». اقول ان الذي يظهر منها الوجه واليدان وعلى ذلك أكثر أهل التفسير، واخرج البيهقي بسنده عن ابن عباس قال «الوجه والكفين» وفي رواية اخرى قال «الكحل والخاتم» واخرج ذلك عن عائشة رضي الله عنها قالت «ما ظهر منها، الوجه والكفين».

وكيف يتصور ان الوجه والكفين من المرأة عورة مع الاتفاق على كشفهما في الصلاة ووجوب كشفها في الاحرام، غير انه قد يجب للمرأة الفاتنة ستر وجهها اذا تحققت الفتنة من كشفه فقد لا يمتثل البعض قوله تعالى «قل للمؤمنين يغضوا من ابصارهم».

وقصارى القول ان النقاب يدخل في دائرة المباح والجائز لكنه ليس فرضاً ولا واجباً ولا سنة في حق المرأة المسلمة، فإن اختارت النقاب فهو جائز وان اكتفت بالحجاب فقد برئت ذمتها.

عودة الى الاهتمام بالتراث العربي والإسلامي

«المنقذ من الضلال» للغزالي بالهنغارية

□ *بودابست – ثائر صالح*

■ تصدر بين حين وآخر باللغة الهنغارية ترجمات لدرر متنوعة من التراث العربي والإسلامي، بينها كتب الأدب والفلسفة والحكمة والعلوم الدينية (علوم الإسلام). وتزايد الاهتمام في السنوات الأخيرة بالتراث العربي وشؤون منطقة الشرق الأوسط في شكل عام بعد فترة طويلة من التراجع طوال السبعينات والثمانينات من القرن الماضي عقب نشاط استعرابي شهده خصوصاً عقد الستينات. وعلى رغم هذا التفاوت يمكن القول ان الترجمة من العربية الى الهنغارية ضعيفة (وأضعف منها الترجمة من الهنغارية الى العربية، بل تكاد أن تكون معدومة).

وشملت الدفعة الأخيرة من الترجمة في الستينات مجلد «قصص عربية معاصرة» الذي صدر سنة ١٩٦٠ ترجمه أشتفان بوغا وتماش كاتونا ولاسلو فارادي. وضم قصص محمود تيمور ورشاد رشدي وطه حسين. كما صدرت ترجمة عمل طه حسين «الأيام» لاشتفان بوغا في ١٩٦٢، ورواية يوسف ادريس «الحرام» للصحافي الايوش كروديناك (١٩٦٤)، ونجيب محفوظ «بداية ونهاية» الذي ترجمته تشيلاً بربلسكي (١٩٦٥)، وأسفار ابن بطوطة «تحفة الناظر في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار» لبربلسكي وبوغا (١٩٦٤). وسبق أن ترجم تماش كاتونا وإمره مولنار عمل ابن طفيل «حي بن يقظان» في ١٩٦١.

وعاودت ترجمات الأدب العربي والدراسات الصدور أخيراً، منها ترجمة «ألف ليلة وليلة» الكاملة التي أنجزتها المستعربة تشيلاً بريلسكي في طبعة أنيقة جميلة بسبعة مجلدات (١٩٩٩–٢٠٠٠)، وسبق لهذه المربية التي درّست مئات وآلاف الطلبة الأجانب الهنغارية أن ترجمت كتاب «كليلة ودمنة» بالتعاون مع المستعرب إشتفان ألنَر في ١٩٧٨. وصدرت ترجمة القرآن الكريم التي أنجزها روبرت شيمون في ١٩٨٧ وهي الترجمة المتداولة الآن على رغم نواقصها بعد صدور العديد من الترجمات غير الكاملة. وترجم شيمون ايضاً أجزاء وافية من «مقدمة ابن خلدون» في ١٩٩٥. وفي سنة ٢٠٠٠ نشرت ترجمة لعمل جبران خليل جبران «النبي» (عن الانكليزية). وصدرت كتب عدة عن العرب والإسلام وتأريخ الشرق الأوسط، منها كتاب عالم المصريات لاسلو كاكوشي «تأريخ وثقافة مصر القديمة».

وكان بين ما صدر في السنوات القليلة الماضية ترجمة لمجموعة الأحاديث النبوية الشريفة المعروفة «بأربعينية النووي»، انجز ترجمتها القس المستعرب بال نيمت سنة ١٩٩٨. وتوزع الجماعة الإسلامية الهنغارية هذه الترجمة مع النص العربي بعد إعادة طبعها من دون ذكر المترجم او دار النشر. وأنجز المستعرب بال نيمت ترجمة عمل الإمام الغزالي الشهير «المنقذ من الضلال» الى الهنغارية، وصدرت الترجمة عن دار بالاتينوس في آذار (مارس) ٢٠٠٣ ضمن سلسلة «السيل» التي تقدم الفكر الفلسفي.

واختار نيمت هذا العمل لاعتبارات عدة، اهمها كون هذا الكتاب يقدم خلاصة فكر الغزالي، إذ وضعه في مرحلة نضجه الفكري عندما تجاوز الخمسين. والمترجم يتفق مع تشخيص د.ب. مكدونالد بأن «الغزالي اكثر المفكرين المسلمين اصالة وأعظم علماء الدين». ومن جهة اخرى لا يمكن اعتبار اعجاب المترجم بفكر الغزالي عاملاً ثانوياً في امر اختياره هذا النص للترجمة.

وبعدما يتناول المترجم في الخاتمة حياة وعمل الغزالي بتفصيل، يشير الى بعض الإشكاليات المتعلقة بعنوان الكتاب. وحول ترجمة عنوان الكتاب يقول: «تسببت ترجمة عنوان العمل في بعض الصعوبة. ليس لأن ترجمة العنوان حرفياً غير فصيحة ويصعب فهمها فحسب، بل كذلك لأن عائدية المصدر (المنقذ) غير واضحة، فهل تعود كلمة المنقذ للفظ الجلالة ام الى الطريق المؤدي الى الله، وهو امر يرد في عنوان العمل نفسه بصيغة «المنقذ من الضلال والموصل الى ذي العزة والجلال». ويذكّر نيمت بالنقد غير المباشر الذي عبّر عنه الحافظ الذهبي احد تلامذة الإمام ابن تيمية عند تهيئته موجز لكتاب استاذه فيقول في المقدمة «الحمد لله المنقذ من الضلال...» في خلاف مع رؤية الغزالي في البحث عن الطريق المنقذ من الضلال، وتقديره ان الجوهر ليس الطريق المنقذ من الضلال بل الله هو المنقذ من الضلال.

الجانب المثير في فكر الغزالي بالارتباط مع تأثر الفلسفة الأوروبية بفكره، هو مدى اطلاع رينيه ديكارت (١٥٩٦– ١٦٥٠) على اعمال الغزالي. فتأثير الفكر الفلسفي العربي في الفكر الأوروبي معروف، ولا يقتصر ذلك على تأثير الفلاسفة العرب الذين تبعوا ارسطوطاليس في منطقه، بل حتى فكر الغزالي الذي غذى منهجه التشكيكي فكر المفكرين الأوروبيين الذين مهدوا لعصر التنوير مثل ديكارت. وفي هذا المقام يشير المترجم الى التماثل الغريب لعمل ديكارت الشهير «مقالة الطريقة» مع «المنقذ من الضلال». ويذكر نيمت ان غالبية العلماء المسلمين ترى ان ديكارت لم يقتبس الغزالي، بل توصل الى استنتاجات مقاربة بسبب استعمال المنهج نفسه. في حين يرى البعض الآخر ان ديكارت اطلع على محتوى «المنقذ من الضلال» بالتفصيل او في شكل مختصر، عبر العديد من زملائه المستشرقين، ومن بين هؤلاء ياكوب غوليوس (١٥٩٦ – ١٦٦٧) الذي جلب معه الكثير من المخطوطات العربية الى لايدن بعد رحلاته الى الشرق، قد يكون عمل الغزالي هذا بينها. ومن المثبت ايضاً ان مكتبة جامعة لايدن اقتنت نسخة منه في زمن لا يتأخر عن ١٦٦٥. ويذكر نيمت ان البعض يعتقدون باقتباس ديكارت الغزالي نصاً ونسبته الى نفسه، بينهم الباحث التونسي عثمان الكعاك الذي اشار في مؤتمر العلوم الإسلامية العاشر المنعقد في عنابة في الجزائر سنة ١٩٧٥ الى ذلك صراحة. ويستشهد نيمت في ذلك بأستاذه الدكتور محمد سعيد البوطي رئيس قسم علوم الدين في كلية الشريعة في دمشق الذي ذكر الواقعة، والحادثة المؤسفة التي حصلت اثناء المؤتمر بوفاة الكعاك. لكن الفارق بين الغزالي وديكارت هو الدور الإلهي في الوصول الى الهدف، ففيما يشير الغزالي الى إنارة الله لقلبه وشفائه من علته ووصوله الى اليقين، لا يتوصل ديكارت الى ذلك بل يعتقد بأن وصوله الى اليقين يتم عبر المحاكمة العقلية «وهكذا وصلت الى مبتغاي بنفسي» ويربط بين الوجود والتفكير، «انا أفكر إذن انا موجود».

وليس مبالغة القول ان البوطي هو استاذ نيمت، فهو استاذه بالفعل عندما درس نيمت لمدة سنتين تقريباً في كلية الشريعة في دمشق قبل نحو ربع قرن، اذ امضى هناك فترة لتعلم العربية على عادة طلبة قسم اللغة العربية في جامعة العلوم في بودابست الذين يبعثون الى دولة عربية لمدة عامين لتقوية لغتهم. وعاد نيمت من سورية بلسان عربي فصيح وقويم، وبمعرفة غنية بالإسلام والعادات والتقاليد العربية، وبمكتبة مهمة من نفائس كتب التراث العربي. ويعتبر نيمت اليوم من المتخصصين في شؤون الإسلام، وكثيراً ما يشاهد في البرامج التلفزيونية او يسمع في الإذاعات أو يقرأ في الصحف عند تناول الأمور المتعلقة بالإسلام، ويكتب لتبديد الجهل بحقيقة الإسلام والمسلمين والذي هو السبب الأساسي الكامن وراء التخوف الذي تبديه اوروبا تجاه الإسلام. وهو يدرس العربية في كلية التجارة في بودابست منذ سنوات عدة، ويتميز عن غيره من الذين يدرّسون العربية في جامعات هنغاريا بانه يتشدد مع الطلبة في تعليمهم النطق العربي الصحيح قدر الإمكان، فهو يولي سلامة النطق اهمية كبيرة. وعلاوة على ذلك فهو ينشط في مجال العلاقات الهنغارية – العربية وهو عضو في جمعية الصداقة الهنغارية – الفلسطينية، وساهم في تشكيل الجمعية الهنغارية لأصدقاء الإسلام اخيراً.

الوزير يعقوب بن كلس الذي ولد يهودياً أسلم على يد كافور... ومات بين يدي العزيز

شهرزاد العربي *

■ تعددت المراجع التي تناولت حياة الوزير يعقوب بن يوسف بن إبراهيم بن كلس أبو الفرج، الذي تولى الوزارة في عهد كافور الإخشيدي لما ظهر منه من نباهه وعلو همة، ثم صار وزيراً للعزيز. كان مولده في بغداد في أسرة يهودية، ويزعم أنه من نسل هارون بن عمران أخي موسى بن عمران عليهما السلام. وفي بعض المراجع يرجع نسبه إلى السمو بن عاديا اليهودي صاحب حصن الأبلق الذي نقرأ عنه في سيرة امرئ القيس الكندي المشهور بقصة الوفاء التي كانت منه بسبب وديعة أودعه أياها امرؤ القيس، وكانت سبباً في مقتل ابنه أمام عينه.

نشأ يعقوب بن يوسف في بغداد عند باب القز، وتعلم الكتابة والحساب ثم سافر به والده إلى الشام، وأرسله بعدها إلى مصر سنة إحدى وثلاثين وثلاثمئة، واتصل ببعض خواص كافور الإخشيدي وتقلد في بداية أمره بعض المناصب الصغيرة التي من خلالها أظهر نجابة وشهامة ونزاهة لفتت كافور الذي أجلسه في ديوانه الخاص. ويوماً بعد يوم زادت مكانة يعقوب في نفس كافور لما رأى من عفته وإخلاصه في العمل، حتى أنه أوكل إليه كل أمور الدواوين فلا يصرف منها دينار إلا بتوقيعه.

ويذكر صاحب النجوم الزاهرة في حلي حضرة القاهرة أنه أسلم على يد كافور الإخشيدي، من دون إضافة شيء يفيد الظروف والأسباب التي دعت يعقوب إلى التخلي عن اليهودية وإعلان إسلامه، ويحدد بعض المراجع الأخرى أن تاريخ إسلام يعقوب بن كلس كان يوم الاثنين لثماني عشرة ليلة خلت من شعبان سنة ست وخمسين وثلاثمئة. ويمثل هذا التحديد الدقيق لإعلان يعقوب إسلامه أهمية قصوى لجهة النظر إلى التهيئة النفسية للبدء في ممارسة طقوس أو شعائر دينية مختلفة عن تلك التي اعتادها، وإن لم تكن بعيدة منه باعتباره يعيش في مجتمع إسلامي، مظاهر تطبيق الدين فيه بادية للعيان.

غير أننا بمتابعة أخبار يعقوب بن كلس نجد آخرين يقدحون فيه ويصفونه صفات قبيحة كما فعل الحافظ بن عسكر في تاريخ دمشق حيث وصفه بأنه كان خبيثاً ذا مكر وله حيل ودهاء وفيه فطنة وذكاء وكان في قديم أمره خرج إلى الشام فنزل الرمله وصار بها وكيلاً، فكسر أموال التجار وهرب إلى مصر، فتاجر كافور الإخشيدي فرأى منه فطنة وسياسة ومعرفة بأمر الضياع فقال: لو كان مسلماً لصلح أن يكون وزيراً، فطمع في الوزارة فأسلم يوم جمعة في جامع مصر، ولما عرف الوزير أبو الفضل جعفر بن الفرات أمره قصده فهرب إلى المغرب.

من خلال هذه الرواية نرى الطعن في نيات يعقوب بن كلس لجهة أن إسلامه كان لأجل المنصب وليس رغبة في الدين، أما مسألة ذكائه وقدرته على نيل الحظوة لدى مستخدميه فهي مسألة لا يتنازع فيها اثنان حتى من قال إنه صائن لنفسه محافظ لدينه، ويذكرون بعض الوقائع التي استعمل فيها ذكاءه وتوصل بها إلى نيل المزيد من الثقة والقرب لدى كافور الإخشيدي.

وتذكر المراجع أن إسلامه كان على يد كافور إلا أنه لم يقلد الوزارة، ولم يستوزر إلا في بلاد المغرب. وقدم المعز وتولى أمور العزيز بن نزار في مستهل شهر رمضان سنة ستة وثمان وستين وثلاثمئة أي أنه لم ينل الوزارة إلا بعد ست عشرة سنة من إسلامه كما يمكن الرد على أن تولي المناصب في الدولة الإسلامية لم يرتبط بدين الرجل، إذ تولى بعض المناصب الكبيرة في الدولة الإسلامية يهود ونصارى ومجوس وغير ذلك مع بقائهم على دينهم، ومن ذلك ما ذكره ابن الأثير في ما يخص العزيز بالله بعدما أخذ مصر من أنه استناب في الشام يهودياً، وولى عيسى بن نسطورس النصراني كتابته، فاعتز بهما النصارى واليهود وآذوا المسلمين.

وفي سيرة يعقوب بن يوسف بن كلس اجماع على حسن أخلاقه وتصرفاته، ويصل أحد الذين ترجموا حياته إلى القول: إنه كان كامل الأوصاف، ومسألة القدح في صدق إسلامه قد يشار إليها إشارة طفيفة في بعض الكتب ويغالي فيها البعض على قلتهم. غير أننا نجد من يقف إلى جانب يعقوب بن يوسف مدافعاً عن إسلامه فنقرأ قول ابن خلكان: وقيل إنه مات على دينه، وكان يظهر الإسلام، والصحيح انه أسلم وحسن إسلامه وبنى ابن خلكان هذه النتيجة على واقعة ساقها وهي أن يعقوب بن يوسف كان في مجلس له فذكر اليهود بكلام يسوء اليهود سماعه. فبيّن عوراتهم وفساد مذهبهم، وأنهم على غير شيء، وأن اسم النبي صلى الله عليه وسلم موجود في التوراة وهم يجحدونه. أما خلال حياته فهناك أعمال أخرى جليلة قام بها يحاول أن يعوض ما فاته فأصبح بيته ملتقى للعلماء والفقهاء ووظف قوماً يكتبون القرآن الكريم وآخرين يكتبون كتب الحديث والفقه، ويشكلون المصاحف وينقطونها، كما أنه جلب الصناع إلى بيته لإعداد ميضأة للطهور بثمانية بيوت تختص بمن يدخل داره من الغرباء. ولم تشغله الوزارة عن تصنيف كتاب في الفقه مما سمعه من المعز وولده العزيز.

وبحكم منصبه ومكانته العالية في نفس العزيز، صار ليعقوب بن يوسف من الأموال الكثير وقدرت تركته يوم وفاته بمقدار كبير بلغ ماله من الجواهر ما قيمته أربعمئة ألف دينار وبزَمن كل صنف خمسمئة ألف دينار وأربعة آلاف غلام من العبيد والمماليك. وتذكر كل المراجع أنه مات بين يدي العزيز حاكم مصر سنة ٣٨٠ هجرية وأنه صلّى عليه صلاة المسلمين ودفن في قصره.

* كاتبة جزائرية.

بيت السحيمي أبرز النماذج المتبقية في قاهرة اليوم

الزخرفة بالقيشاني فضلها العثمانيون مخالفين سلاجقة الروم

□ *القاهرة – راندة عبدالكريم الخطاط*

■ **اشتهرت في العصر العثماني زخرفة الجدران بالبلاطات الخزفية، وحذق العثمانيون في زخرفة البلاطات الخزفية واستعملوها بكثرة في تغطية جدران عمائرهم واتقنوا زخارفها وألوانها.**

وفضل العثمانيون البلاطات القيشانية على غيرها وأكثروا من استعمالها، وربما كان هذا عائداً إلى انها أقل تعقيداً في الاستعمال من الفسيفساء الخزفية، وهي ترصيص قطع متناهية الصغر من البلاط الملون أو الصدف أو خردة الرخام في تشكيلات وزخارف فنية، والتي كان يفضلها سلاجقة الروم، فالبلاطات القيشانية أكبر حجماً من الفصوص الخزفية والنقش يكون أوضح وتركيبها لا يكون معقداً ولا يحتاج إلى جهد كبير مثل الفسيفساء.

وأقدم مثال للبلاطات الخزفية العثمانية تلك التي تزين قبة الصخرة بعد تصدع فسيفساء القبة في عهد السلطان سليمان القانوني، واستخدمت فيها الزخارف النباتية والكتابية والهندسية من القرآن الكريم، بألوان الكحلي والتركواز والأصفر والأخضر والأبيض.

واستخدم القيشاني في العمارة الإسلامية بكثرة، خصوصاً في البلاد التي خضعت لسيادة الدولة العثمانية، وهو يمتاز في أنه يحمي العمائر من تأثير عوامل التعرية المختلفة، ويساعد في تقوية الجدران، فتبقى البلاطات القيشانية محتفظة برونقها وألوانها ثابتة لا تتغير مع الزمن محتفظة بالبريق المزجج نفسه على عكس الطلاءات التي تتآكل ألوانها ولا تثبت طويلاً امام عوامل الزمن.

وفي القاهرة نماذج متعددة للزخرفة بالقيشاني مثل سبيل عبدالرحمن كتخدا في منطقة النحاسين، وقصر محمد علي في المنيل، وبيت السحيمي في الجمالية.

بيت السحيمي

يقع بيت السحيمي (١٠٥٨– ١٢١١هـ ١٦٤٨ – ١٧٩٦م) في قلب حي الجمالية قرب باب الفتوح وباب النصر وسور القاهرة الفاطمي في حارة الدرب الأصفر المتفرعة من شارع المعز في حي الجمالية أقدم أحياء القاهرة.

وعلى رغم أن عمر البيت لا يتجاوز ٣٥٠ سنة إلا أن موقعه كان عامراً بالمباني منذ بناء القاهرة في العصر الفاطمي.

ووجد من خلال الحفريات في أحواش المنزل إن البناء الحالي يقوم فوق أنقاض وبقايا مبان أقدم منه، قد ترجع إلى العصر الفاطمي حيث كان المكان موقعاً للمنحر (المذبح)، أو قد ترجع إلى العصور التالية. ويتضح من المراجع التاريخية أنه بعد هدم المنحر تم بناء مبان مملوكية عدة في هذه المنطقة من بينها خانقاه.

أما في الوقت الحالي فالبيت يقع في قلب منطقة الجذب السياحية، ويجاوره كثير من المباني الأثرية التي ترجع إلى العصور الإسلامية المختلفة.

شيد بيت السحيمي على مراحل عدة إلى أن وصل البناء إلى الوضع الذي نعرفه اليوم، ويتضح ذلك من الكتابات الموجودة في مناطق مختلفة من البيت، وأيضاً من المراجع التاريخية.

وأقدم جزء هو الجزء الجنوبي الشرقي، وهو الذي شيده الشيخ عبدالوهاب الطبلاوي (١٦٤٨م / ١٠٥٨ هـ). والجزء الثاني انشأه الحاج إسماعيل شلبي عام ١٦٩٩م / ١١١١هـ.

ويشغل بيت السحيمي أرضاً مساحتها أكثر من ٢٠٠٠ متر مربع أي نحو نصف فدان. وهو يحتوي على كل عناصر البيت القاهري في القرنين السابع عشر والثامن عشر. ويضم البيت حوشاً داخلياً رئيسياً مساحته أكثر من ٢٠٠ متر تطل عليه قاعات وغرف يصل عددها إلى ١١٥ موزعة على خمسة مستويات. وآخر من سكن المنزل وجدده أسرة الشيخ محمد أمين السحيمي شيخ رواق الأتراك في الأزهر (توفي عام ١٩٢٨م).

وفي عام ١٩٣١ اشترت الحكومة المصرية بيت السحيمي من ورثة الشيخ السحيمي بمبلغ ستة آلاف جنيه مصري واعتمدت ألف جنيه لترميمه. واعتمد التشكيل الداخلي على التشكيل السطحي باستخدام الزخارف المتنوعة الملونة في السقف والتكسيات الرخامية الملونة للنافورات والفسقيات والأرضيات والوزارات، في تشكيلات زخرفية اعتمدت على خردة الرخام والصدف فأعطت تشكيلاً بديعاً.

وزينت الفسقيات بالرخام الأبيض الناصع فيما الأرضية من تشكيلات متنوعة من الفسيفساء الملونة من خردة الرخام، في زخارف هندسية استخدمت فيها ألوان الكحلي والطوبي والأبيض.

ويضم البيت تشكيلات أخرى من الفسيفساء بالألوان والخامات نفسها على هيئة إطار زخرفي هندسي أحيط بلوح من الرخام الأبيض، وحوله زخرفة بديعة من الفسيفساء الدقيقة الملونة التي تعكس مهارة الفنان العربي وابداعه ودقته.